المجلد:18 العدد: 01/ سبتمبر 2022
ص: 14 -24
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

دور الإستراتيجية السيميائيّة في الحدّ من غلواء التأويل
قراءة في كتاب (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية) لــ أمبرتو إيكو

LE ROLE DE LA STRATEGIE SEMIOTIQUE POUR LIMITER LES AGGERATIONS INTERPRETATIVES
LECTURE DANS : INTERPRETATION ENTRE SEMIOTIQUES ET DECONSTRUCTION. D'UMBERTO ECO

لخضر بوخال [1*]
boukhal@cuniv-naama.dzالمركز الجامعي صالحي أحمد بالنعامة (الجزائر)،

تاريخ الإرسال: 2022/04/18	تاريخ القبول:2022/07/01	تاريخ النشر: 2022/09/18

****

ملخص:

بعد العشريات الثلاث التي تلت صدور كتابه (الأثر المفتوح) بداية ستينيات القرن الماضي، حيث ناقش جدلية حقوق النصّ وحقوق القارئ، لاحظ أمبرتو إيكو *Umberto Eco* أنّ "حقوق المؤوِّلين قد فاقت كلّ الحقوق"، في إلماحة منه لما يطلق عليه التأويل المضاعَف أو المفرِط *surinterprétation* عند التفكيكيّين. وقصد وضع أسسٍ سيميائية للحدّ من غلواء التأويل متحجّجة بمفهوم السيميوز اللّامتناهي، يطرح تبئير مسارات التأويل على قصديّة النصّ *intentio operis*، دون إغفال دور القارئ النموذجي في تفعيل النصّ واقتراح تخمينات مناسبة لإستراتيجيته السيميائية وانسجامه الداخليّ.

وتأتي القراءة الواصفة التي نرغب في إجرائها لثلاثة من الفصول المشكّلة للكتاب الذي انتخَب فيه السيميائي سعيد بنكّراد مجموعة من النصوص من كتابَي إيكو (التأويل والتأويل المضاعَف) و(حدود التأويل)، للإجابة عن تساؤلات من قبيل: ما التأويل المضاعَف؟ وما علاقته بالسيميوز اللّامتناهي؟ وفيم تكمن خطورته في تأويل النصوص؟ وفيم تختلف قصديّة النصّ عن قصديّة المؤلّف وقصدية القارئ؟ وهل هي نفسها الإستراتيجية السيميائية؟..

الكلمات المفتاحية: التأويل المضاعَف ـ قصدية القارئ ـ قصدية النص ـ الإستراتيجية السيميائية ـ التفكيكية.

ABSTRACT:
Three decades after the publication of his book "The Open Work" in the sixties, where he discusses the dialectics of the text's rights and the reader's, Umberto Eco remarks that "the interpreters rights seems to be exceeding all rights", in an indication towards what is called the over-interpretation in the deconstructionists works. And in order to establish some semiotic foundations to limit the

---

* لخضر بوخال

tyranny of the interpretation which is justified by the concept of the infinite semiosis, he suggest directing the interpretation's paths towards the text's intentionality *intention operis*, without neglecting the role of the model reader in activating the text and suggesting adequate ideas for its semiotic strategy and internal coherence.

المقال:

1. مقدمة:

ما ينفكّ السّجال العلمي في تأويل النصوص قائما بين قصديّات ثلاث: قصديّة المؤلّف وقصدية القارئ وقصديّة النصّ. وليس غريبا أن يلج أمبرتو إيكو ***U.Eco*** باعتباره واحدا من أكبر السيميائيين في العصر الحديث، مضمار ذلك النقاش مُدليًا بدلاء ثقافته الموسوعية في التاريخ والفلسفة والفنون والنقد والكتابة السرديّة، تلك الموسوعة التي اكتست ثراء وعمقا بتجربة في التأليف والمحاضرة قاربت الستين من حيث المؤلفات والسنين على حدّ السواء.

ولأنّه قد أحسّ بحاجة ميدانَي التأويل والسيميائيات إلى قواعد ضابطة، بعيدا عن نيّة حشره في ضيق النظرة الأحادية للقراءة والفهم من جهة، ومن أجل الحدّ من غلواء التأويل وانزياحاته اللّامتناهية مع التفكيكية التي تدعو إلى "إنقاذ النصّ" بوساطة نقله من وضع الحاضن لدلالة ما والعودة به إلى طابعه اللامتناهي. والساعية حثيثا إلى الدفع بالقارئ إلى تغيير مسلّماته الدلالية لكي يتخيّل أنّ كلّ سطر يخفي دلالة خفيّة، وأنّ الكلمات تخفي ما لا تقول، وما اكتشاف دلالة ما إلا فتح لآفاق دلالات جديدة من دون توقّف.

وفي هذا الإطار الإشكالي يتنزّل مشروعه التأويلي الذي يؤسّس فيه لقصدية النصّ، من خلال الدعوة للتمييز بين "استعمال" النص و"تأويله" من خلال الإستراتيجة السيميائية والانسجام الداخلي الخاص به باعتبارها كلّا متناسقا. ولتقريب طرحه للمتلقّي يفتح أمامه مساحات ثقافية واسعة، كعادته في الكتابة والمحاضرة، عبر نماذج كثيرة تتداخل فيها النصوص والأسماء والأزمنة والثقافات، حيث تحضر: "الكوميديا الإلهية" لدانتي Dante Alighieri الإيطالي، و"محاكاة المسيح" التي لا يُعرف مؤلّفها، وقصائد الشاعر الإنجليزي وُوردزُورث William Wordsworth، و"خيالات" بورخيس Louis Borges، وغيرها كثير مشكّلةً فسيفساء تناصية راقية.

2. في العتبات:

سنستعير في البداية بعض مصطلحات نقد الترجمات Critiques des traductions، وهما: النصّ المنبع texte source والنص الهدف texte cible، من أجل إشارة مقتضبة لإشكالية عتبة الكتاب المنسوب لأمبرتو إيكو(1932-2016)، والمترجَم من قبل الناقد سعيد بنكَراد، أحد رواد البحث السيميائي في الوطن العربي.

فلعلّ المطّلع على ببليوغرافيا الناقد والروائي والمفكر الإيطالي صاحب مؤلّفاتٍ مثل: "اسم الوردة" و"القارئ في الحكاية" وغيرهما كثير، يستغرب عنوان الكتاب الذي نرجو الكشف عن بعض مشمولاته، ومن ثمّ تسليط شيء من الإضاءة على أهمّ القضايا التأويلية المثارة في ثناياه.

ونتفهّم من القارئ الكريم موقفه هذا لأنّه ليس في مكتبة إيكو النقدية عنوان مثل: (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية) "Interpretazione tra semiotica e decostruzione". وقد يكفي الرجوع لمعاينة الأمر إلى القائمة التي أنجزها أحد المواقع المكتبية المتخصّصة، واستعراض مؤلّفات إيكو التي تمّ إحصاؤها فيه من مجالات النقد والسرد والفكر.[1]

ولا نجد في مقدّمة الطبعة الثالثة[2] من الترجمة العربية التي نحن بصدد القراءة فيها[3]، أيّة إشارة للاختلاف بين عتبة النصّ المنبع (الكتاب الأصل) والنصّ الهدف (الترجمة). فقد اكتفى المترجم بتبيان ما يشتمل عليه الإصدار، وهو مجموعة من المحاضرات التي ألقاها أمبرتو إيكو في أمريكا خلال سنة 1992، ثم جمعها سنوات بعد ذلك في كتاب عنونه بـ (التأويل والتأويل المضاعَف Interprétation et Surinterprétation)[4] نشرته المطبوعات الجامعة بفرنسا PUF سنة 1996. كما ارتأى أن يضيف للطبعة العربية ثلاثة نصوص: اثنان منها لـ إيكو من كتابه (حدود التأويل Les Limites de L'Interprétation. 1990)، والثالث لـ جناثان كَلَر J.Culler وهو أحد ممثليّ التفكيكية في الولايات المتحدة، مع العلم أنّه موجود في النص المنبع.[5]

ممّا يعني أنّ السيميائي والمترجم سعيد بنكراد قد قام بتصرّفين: الأول في انتخاب النصوص من كتابين لإيكو عوض كتاب واحد، حيث انتقى أربعة نصوص من (التأويل والتأويل المضاعَف)، ونصّين من (حدود التأويل)، فكأنّه بذلك قد شكّل كتابا جديدًا لإيكو.

ومن جهتنا سنسمح لأنفسنا نحن أيضا بأن نقوم بعملية اختيار على منتخبات سعيد بنكراد من كتابات إيكو، حيث سنخصّ بقراءتنا الفصول الثلاثة الأولى وهي: التاريخ والتأويل، التأويل المضاعَف للنصوص، بين المؤلّف والنصّ، باعتبارها نواة طروحات السيميائي الإيطالي الكبير في مؤلّفه (التأويل والتأويل المضاعَف).

3. التاريخ والتأويل:

في هذا الفصل التمهيدي يشير إيكو إلى كتابه (الأثر المفتوح Opera Aperta)، وقد صدر في لغته الأصلية (الإيطالية) مع نهاية الخمسينيات (1958)، ثم ترجم إلى الفرنسية أربع سنوات بعد ذلك (1962).[6] وتحديدا إلى دراسته الجدلية القائمة في التأويل بين حقوق النص وحقوق المؤلّفين، ليقرّ بأنّه قد أصبح لديه إحساس الآن (أي بعد مرور ما يناهز الثلاثين سنة) أنّ حقوق المؤوّلين فاقت في السنين الأخيرة كلّ الحقوق.

وفي توضيحٍ للفكرة ذاتها يقول بأنّه سعى في مؤتمر عُقد في جامعة هارفارد سنة 1989 حول شارل سندرس بيرس Ch.S.Peirce، إلى البرهنة على أنّ مقولة "السيميوزي اللّامتناهية" يجب ألا تقود إلى القول بغياب قاعدة للتأويل.[7]

ثم يفتح قوسا سرعان ما يغلقه إلى حين، للإشارة إلى القصديّات التي يُحتكم إليها في التأويل، والمشكّلة لثلاثية: قصديّة المؤلّف intentio auctoris، وقصدية القارئ intentio lectoris، وقصديّة النصّ intentio operis، ويبيّن بأنّ القصدية الأخيرة أو ما يصطلح عليها أيضا "الإستراتيجية السيميائية" ستكون مناط الطرح في المحاضرتين الثانية والثالثة.[8]

ويقترح على المتلقّي توطئةً لما يريد الولوج إلى مناقشته من طروحات، أن يأخذه بدايةً إلى رحلة "أركيولوجية" (أي أرشيفية على طريقة ميشال فوكو في كتابه "أركيولوجيا المعرفة" وغيره) بعيدا عن النظريات المعاصرة للتأويل النصّي، للوقوف على حقيقة هي عكس المعتقد

السائد من أنّ الفكر مابعد الحداثي postmodernism هو "فكرٌ ينتمي إلى الماضي البعيد"، حيث يسلّط إيكو بعض الإضاءات التاريخية على الهرمسيّة Hermeticism والغنوصيّة Gnosticism[9] كاشفا علاقتهما بفكرة التأويل اللّامتناهي.

ثم يخلص إلى خصائص "المقاربة الهرمسية للنصوص"، فيعرض سلسلة من الأفكار المتشابهة بين الهرمسية القديمة والمقاربات المعاصرة مثل التفكيكية وغيرها، ومن ذلك مقولات مثل:

«- النص كونٌ مفتوح بإمكان المؤوّل أن يكتشف داخله سلسلة من الروابط اللانهائية. [...]

- إنّ اللغة تعكس لا تلاؤم الفكر. إنّ وجودنا في الكون عاجز عن الكشف عن دلالة متعالية. [...]

- من أجل إنقاذ النصّ، أي نقله من وضع الحاضن لدلالة ما والعودة به إلى طابعه اللامتناهي، على القارئ أن يتخيّل أنّ كلّ سطر يخفي دلالة خفيّة. فعوض أن تقول الكلمات، فإنها تخفي ما لا تقول.

- إنّ مجد القارئ يكمن في اكتشافه أنّ بإمكان النصوص أن تقول كلّ شيء باستثناء ما يودّ الكاتب التدليل عليه.

- في اللحظة التي يتمّ فيها الكشف عن دلالة ما، ندرك أنّها ليست الدلالة الجيدة، إنّ الدلالة الجيّدة هي التي ستأتي بعد ذلك، وهكذا دواليك.»

ليبيّن أن ما يودّ قوله من خلال هذه المقارنات «هو أنّ هناك، في موضع ما، مقاييس تسمح بإيقاف التأويل.»[10]

4. التأويل المضاعف للنصوص:

من بين ما يسعى إليه إيكو في هذا الفصل إبراز مبادئ "السيميوز الهرمسيّة"، ومن بينها مبدأ المماثلة الذي يعدّ في هذا الفكر «بالغ العمومية والمرونة، فقد كان يتّسع للظواهر التي نصنّفها اليوم ضمن ما يسمى المماثلة المورفولوجية أو التناظر[11] Isotopie النسبي. كما كان يتّسع لكلّ أشكال الاستبدال الممكنة التي يسمح بها التقليد البلاغي، وهو ما يسمى بالتجاور.» والأصل الذي يُرتكز عليه في هذه المسألة هو شكل القرابة حيث «يتشابه الشيئان أحيانا من حيث السلوك، وأحيانا من حيث الشكل، وأحيانا من حيث أنهما يوجدان في زمن واحد وسياق واحد.»

لكنّ المشكلة التي يولّدها هذا النوع من الاستدلال هو أنّه يشرّع أبوابا لا يمكن غلقها، فبمجرد أن نطلق «العنان لآليات التناظر فلا شيء يمكن أن يوقف هذه الآلية. ذلك أن الصور والمفهوم والحقيقة التي يتمّ الكشف عنها من خلال المماثلة، تتحوّل هي الأخرى إلى علامة تحيل إلى تناظر جديد.» وهكذا «سيكون من حقّ المؤوّل داخل كون يحكمه منطق المماثلة (والتداخل الكوني)، أن يفترض أنّ ما يُعتقد أنّه دلالة علامة ما، فإنّه لا يشكّل في واقع الأمر سوى علامة تشير إلى دلالة إضافية.»[12] وهكذا دواليك بشكل لامتناهي.

يعارض إيكو التبني المطلق لهذا المنطق في التفكير وتأويل الظواهر، وبالتالي في تأويل النصوص. مبيّنا أنّ الحقيقة التي يجب أن يقرّ بها الجميع هي «أنّ أيّ شيء يمكن أن تكون له، من زاوية ما، علاقات تناظر أو تجاور أو مماثلة مع أيّ شيء آخر» وعليه وجب التمييز بين "تأويل معقول" و"تأويل ذهاني" interprétation paranoïaque ، الذي أسّست له الهرمسية من خلال بلورتها لما يشبه المنهج الهوَسيّ في قراءة العالم والنصوص قراءة يهيمن عليها الارتياب.[13]

ولتأكيد وجاهة اعتراضه هنا يقوم بضرب أمثلة من التأويلات الخاطئة للسيميوز الهرمسيّة، بسبب اعتمادها على إطلاقية مبدأ الأمارات (دلائل المماثلة) والمبالغة في إسناد أهمية لها أثناء التأويل والفهم، فيتحدّث عن الطبيب الذي يُرجع علّة مرضاه إلى عامل واحد، حين اكتفى بالاعتماد على ملاحظة الأمارات المشتركة السهلة. وكذا عن مَن قام بعَزو قدرات خارقة لنبتة "السّحلبية" l'orchidée لتناظرات مورفولوجية مع جزء من الجهاز التناسلي للإنسان، حيث تمّ الانتقال في التأويل من التناظر المرفولوجي إلى التناظر الوظيفي.[14]

وهنا يأتي سؤال منهجي في نقد التفكيكية ورفعها لشعار التأويل المضاعف (أو الزّائد عن الحدّ)، وهو ما قام إيكو بالتمهيد لطرحه عبر التحليلات والأمثلة السابقة، ومفاده: ما هو المعيار الذي يمكن أن نستند إليه في القول بأنّ تأويلا نصيّا ما، يشكّل حالة تأويل مضاعَف une surinterprétation؟

ويحيل إلى الفيلسوف كارل بوبر K.Popper 1902-1994 الذي كان يرى أنّ عددا كبيرا من الملاحظات الإيجابية، لا يكفي لإثبات صدق الفرضية العلمية كقانون فيزيائي. لكن بالمقابل تفضي الملاحظات السّلبية بالضرورة إلى إثبات أنّ الفرضية خاطئة. ففرضيّة "جميع العلامات بيضاء" ليست قابلة للتجريب، بل هي ببساطة قابلة للتفنيد حيث يكفي أن نجد علامة بلون أسود.[15]

وقياسا على هذا الطرح هناك قاعدة واحدة على الأقلّ تسمح لنا - بحسب إيكو - بتحديد التأويل الرديء. ولمقاربة الإجابة عن السؤال السابق حول ما يمكن به معايَرة التأويل الزّائد، يقوم بدراسة واحدة من الحالات الصارخة لذلك الصّنف من التأويل للنصوص المقدّسة/الدينية.[16] كما يستعرض مجموعة من الأمثلة عن وجاهة التأويل وعدمها من أجل التوضيح.

من تلك النماذج التأويلاتُ البعيدة عن انسجام النصّ وإستراتيجيته لمن يدعوهم بـ "مريدي القناع" (adepti del velam) ابتداء من النصف الثاني من القرن 19 لأعمال دانتيDante، ومحاولاتهم الحثيثة للكشف عن "الإرساليات السرّية" المضمَرة فيها.[17]

ومنها التأويل "المطّاطي ولكن غير عبثيّ" لـ جوفري هارتمان G.Hartman 1929-2016، وهو أحد التفكيكيّين الأمريكيين من جامعة يَيل Yale، لأبيات من قصيدة بعنوان "قصائد لوسي" lucy Poems للشاعر البريطاني الكبير ووردزورث Wordsworth 1770-1850.

ويلج بعد التعليق على العمل التأويلي لهارتمان إلى الحديث عن التناظر الدلالي l'isotopie sémantique، مؤكّدا أنّه توجد على الدوام في قراءة النصوص علّة واحدة على أقلّ تقدير، ترجع إلى إمكانية وضع اليد على تناظر دلالي مناسب للتأويل الجيّد. ويذكر تعريف السيميائي الفرنسي ألجيرداس جوليان غريماس A.J.Greimas للتشاكل الدلالي بأنّه «سلسلة من المقولات الدلالية التي نقرأ النص من خلالها قراءة منسجمة.»

ولتبيين دور هذه الآلية في التأويل يعرض مثالا عن ذلك من خلال حوار دار بين شخصين (المرسِل - الرسالة - المرسَل إليه)، أثناء حفل استقبال (السياق). حيث لعب تعدّد دلالات الكلمة toilette في اللغة الفرنسية، وعدم احتكام المرسل إليه (المخاطَب) لسياق النص، دورا حاسما في عدم فهمه لتعبير المرسِل (المتكلّم) حين أعرب عن إعجابه بالبوفيه والخدمات وجمال النساء، وخاصّة الطابع الرفيع لملابسهنّ toilette de femmes، فذهب ظنّه إلى دورات المياه.[18]

وبناء على ما استنتجه من المثال يقوم بالتأسيس النظري بقوله أنّ «أوّل ما نقوم به للكشف عن تناظر دلالي ما، هو النّظر في "تيمة الخطاب". وبمجرد ما ندرك فحوى هذه التيمة، فإنّ التعرّف على تناظر دلالي قارّ سيكون هو الدليل النصّي على "الغاية" الفعلية لهذا الخطاب.» على الرغم من اعترافه بعد ذلك بصعوبة الوصول إلى يقين في تلك المسألة، أي تحديد "تيمة الخطاب"، باعتبارها في حدّ ذاتها موقفا تأويليّا، لأنّ السياق في الكثير من الأحيان يجعله أقلّ يقينا من حالات أخرى تكون في القضيّة أكثر وضوحا وسهولة.[19]

وينتقل للحديث عن السجال التأويلي بين قصدية المؤلّف intentio auctoris، أي الكشف في النص عما كان يرغب صاحبه في قوله، وقصدية النصّ intentio operis أي ما يودّ النصّ في قوله بمعزل عن نوايا الكاتب. ولأنّ إيكو بصدد مواصلة التأسيس لقصدية النص، على حساب القصديّتين الأخريَين (المؤلّف والقارئ)، نجده يركّز عليها في الصفحات المتبقية من هذا الفصل، مقدّما مقاربات لها وتوضيحات لمفهوم "النص"، دون أن يغفل المحافظة على ما يراه رابطا ديالكيتكيّا بين قصديّته وقصديّة القارئ، باعتبار أنّه لا وجود لتأويل دون ذات تقوم به. وفي هذ الشأن يقول بأنّ: «قصديّة النصّ ليست معطاة بشكل مباشر، وحتى إن حدث وكان كذلك، فستكون شبيهة في هذا بـ "الرسالة المسروقة". [لأنّ] رؤيتها محكومة بإرادة الرائي [أي القارئ هنا]. وهكذا، إذا كان بالإمكان الحديث عن قصدية النصّ، فإنّ ذلك مرتبط بتخمينات القارئ. إنّ مبادرة القارئ تعود أساسا إلى قدرته على تقديم تخمين يخصّ النصّ.»[20]

إذن كأننا بإيكو هنا يسعى إلى إبراز دور القارئ في تأويل النصّ وتفعيل مكنوناته، من خلال ما يتمتّع به من كفاءات موسوعية وثقافية، ولكن دائما في خدمة قصديّة النصّ وفق الإستراتيجية السيميائية التي تحكم علاقاته الدلالية، ودون إعطاء حقوق بلا قيود أو شروط للقارئ المؤوّل احترازًا من فتح مجالات السيميوز اللامتناهي.

وفي هذه اللحظة يدخل مفهوم القارئ النموذجي الذي يقوم النص بإنتاجه، بحيث يكون قادرا على الإتيان بالتخمينات المناسبة. مع التأكيد أنّه مباينٌ تماما للقارئ التجريبي (الفعلي أو المحتمَل).

ولكن كيف يمكن التعرّف على قصديّة النصّ؟

ويجيبنا إيكو بتوضيح أنّ «التعرّف على قصدية النصّ هو التعرّف على إستراتيجية سيميائية. وقد يتمّ التعرّف على الإستراتيجية السيميائية أحيانا انطلاقا من أسس أسلوبية متداولة.» مثل عبارة الاستهلال الشهيرة في الحكايات الشعبية once upon a time "كان يا ما كان"، التي سيكون قارئها النموذجي المبنيَن في النصّ طفلًا، أو رجلا يرغب في تقمّص ردود أفعال الصّبا. وإن كان النصّ رغم ذلك مفتوحا على احتمال تأويل علمي في المستقبل.[21]

ثم يقصر بشكل ما الوصولَ إلى حدسٍ خاصّ بقصدية النصّ في سبيل وحيد، هو «إخضاع هذه القصدية لسلطة النصّ باعتباره كلًّا منسجما.» والاعتماد في ذلك على القاعدة التأويلية التي تقضي بأنّ «كلّ تأويل يعطى لجزئيةٍ نصيّة ما، يجب أن يثبته جزء آخر من النصّ نفسه، وإلا فإنّ هذا التأويل لا قيمة له. [...فـ] الانسجام الداخلي للنص هو الرقيب على مسيرات القارئ، وبغير ذلك لا يمكن التحكّم في مصيرها.»[22] أي أنها ستغدو من قبيل التأويلات اللانهائية أو العبثية.

ومَثل هذا النوع من القراءات التي لا علاقة لها مع انسجام النصّ وإستراتيجيته السيميائية، نلمسه في الاقتراح الذي قدّمه الأديب الأرجنتيني الكبير خورخي لويس بورخيس J.L.Borges 1899-1986، في مؤلّفه "خيالات" Fictions، وتحديدا ضمن النصّ المتميّز المعنوَن بـ "بيار مِينار مؤلّف كيشوت" Pierre Menard auteur du Quichotte.[23] حيث رأى على لسان المتكلّم في ذلك النصّ/السّيرة المغالطة biographie fallacieuse، أنّه من المجدّد للنصائح الروحانية لكتاب "محاكاة المسيح"[24] l'Imitation de Jésus-Christ إسناد تأليفه للروائي الفرنسي لويس فرديناند سيلين L.F.Céline. ومن ثمّ قراءته وفق الإستراتيجيات النصيّة المعروفة عن هذا الكاتب (في روايات مثل: رحلة إلى آخر الليل Voyage au bout de la nuit، ومَوت بدين Mort à Crédit..)

وتجدر الإشارة هنا إلى كون تأثّر إيكو بحكاية "بيار مينار" قد بلغ مدى كبيرا، جعله لا ينفكّ يشير إليها ويتحدّث عنها في كلّ مناسبة، فهاهو يصرّح بكونه «على امتداد أيام كنت مدفوعا للتفكير في التأثير الذي أحدثه فيّ "نموذج مينار". إنها حكاية لم أتوقّف عن الاستشهاد بها منذ أن قرأتها. فبأيّ معنى قد حدّدت طريقتي في الكتابة؟»[25]

وبالرجوع إلى النصّ الذي يحيل عليه إيكو نقرأ مايلي عن تقنية القراءة التي يلمّح إليها: «مِينار (ربما دون أن يريد ذلك) أغنى فنّ القراءة الجامد والبدائي بتقنية جديدة: تقنية المفارقة التاريخية l'anachronisme المتعمَّدة، والإسنادات الخاطئة. هذه التقنية تجعلنا نمرّ عبر الأوديسا كما لو كانت بعديّة للإنياذة. [...] هذه التقنية تملأ بالمغامرات الكتب الأكثر هدوءا.»[26] والمثير في إبداعية هذا النصّ البورخيسي بامتياز، أنّ بيار مينار "المؤلِّف" و"صاحب ببليوغرافيا ثريّة" وفق زعمٍ مَحض من النصّ، يرغب بشدّة في كتابة رواية سرفانتس Cervantes الشهيرة "دون كيشوت".[27]

5. بين المؤلّف والنصّ:

تتلخّص فكرة إيكو حول حقيقة النصّ من حيث قابليته للتأويل في مجازية "القنّينة في البحر"، فالنصّ المكتوب بالنسبة إليه «مخطوط استُحفِظ في قنّينة ثم أُلقِيت في البحر. وهذا لا يعني أنّه مخطوط يُقرأ بأيّ طريقة كانت، مثلما نشاء، ولكن أن يُقرأ كعملٍ ظهر بعد موت صاحبه Œuvre posthume.»[28] أي باعتباره مجهول المؤلّف وبالتالي منفصلا عن قصديّته ونواياه الخاصّة.

هكذا «عندما يوضع النصّ في قنّينة [...] بعبارة أخرى: عندما يتمّ إنتاج نصٍّ ما لا لكي يقرأه قارئ بعينه، بل لكي يتداوله مجموعة كبيرة من القرّاء، فإنّ المؤلّف يدرك أنّ هذا النص لن يؤوّل وفق رغباته هو، بل وفق إستراتيجية معقّدة من التفاعلات، تستوعب داخلها القرّاء بمؤهّلاتهم اللسانية فهذه تعتبر موروثا اجتماعيا. ولا يحيل الإرث الاجتماعي في تصوّرنا على لغة بعينها باعتبارها نسقا من القواعد [النحوية] فقط، بل يتّسع هذا المفهوم ليشمل الموسوعة العامّة

التي أنتجها الاستعمال الخاص لهذه اللغة، أي المواصفات الثقافية التي أنتجتها اللغة، وكذا تاريخ التأويلات السابقة لمجموعة كبيرة من النصوص، بما في ذلك النصّ الذي بين يدي القارئ.»[29]

ولتوضيح مفهوم الإرث الاجتماعي واعتماد فعل القراءة باعتباره نوعًا من «التفاعل المركب بين أهليّة القارئ (معرفة الكون الذي يتحرّك فيه القارئ)، والأهلية التي يستدعيها النصّ لكي يُقرأ قراءة اقتصادية [خالصة].» يعود إلى الناقد التفكيكي جوفري هارتمان ليعرض تأويله لبيت ووردزورث: "لا يمكن للشاعر أن يكون إلا فرِحًا" A poet could not but be gay، من قصديته الشهيرة في الأدب الإنجليزي الموسومة بـ "أتيهُ وحدي كالسحاب" I wander lonely as a cloud. ليركّز على ضرورة تأويل اللفظة الأخيرة في البيت (gay) وفق الإرث الاجتماعي والثقافي للشاعر البريطاني في بدايات القرن التاسع عشر، وليس من منظور تأويليٍّ يرغمها على دلالات معاصرة (ببعض ألوان قوس قزح).[30]

ثم يبقى مع المثال التأويلي نفسه قصد التذكير بما ألحّ عليه في كتابه "القارئ في الحكاية" Lector in fabula 1979، حول مسألة الفرق بين تأويل النصّ واستعماله، فيقول: «بإمكاني أن أستعمل نصّ ووردزورث بشكل فيه الكثير من السجال الساخر، لكي أبيّن كيف يمكن أن يُقرأ نصٌّ ما في علاقته بسياقات ثقافية متعدّدة.» ولكن يختلف الأمر بشكل كبير إن كانت الرغبة في تأويل ذلك النصّ، حيث يصبح احترام خلفيّته الثقافية واللسانية شرطا لا مناصّ من توفيره.[31]

ثم يعود إلى مجازية النصّ في القنّينة الملقاة في عرض البحر، ليبيّن أنّ «هذا النمط من التفاعل بين معرفتي والمعرفة التي أسندها إليّ الكاتب المجهول، لا يقودني إلى المراهنة على نوايا المؤلّف بل على نوايا النصّ، أي نوايا ذلك الكاتب النموذجي الذي أنظر إليه باعتباره إستراتيجية نصيّة.»[32] تماما مثلما هو الحال مع مفهوم القارئ النموذجي.

وبعد حديثه عن تجربته ككاتب روائي وعن "اسم الوردة" il nomme delle rosa 1980، والتأويلات التي خضع لها العنوان وبعض أسماء الشخصيات، يخلص إلى خلاصة تأويلية تفضيلية لقصدية النصّ على حساب القصديّتين الأخريَين، إذ «**بين قصديّة الكاتب الصّعبة الإدراك** [لأنّه في حكم المجهول]، **وقصديّة القارئ** [المحفوفة بخطر التأويل المضاعَف]، **هناك القصديّة الشفّافة للنصّ، التي تدحَض كلّ تأويل هشٍّ.**»[33]

أما في ختام هذا الفصل فيرجع بقارئ كتابه إلى الغرض من اللعبة التي بدأها حين أدرج المؤلّف الفعليّ في عتبة المحاضرة، وبالتالي في صلب النقاش وكأنّ له أهميةً ما في التأويل، ليصرّح بأنّ الغاية من ذلك الفعل كانت التأكيد على لا جدوى آراء المؤلّف وقصديّته، وأنّ الأساس في التأويل يكمن في الدفاع عن حقوق النصّ. إذ «ما بين خفايا التاريخ الخاص بإنتاج نصٍّ ما، ومتاهات قراءاته المقبلة، يمثّل النصّ في ذاته حضورا مكثّفا للمؤلّف، أو بؤرة يجب أن نتشبّث بها»[34]

6. خاتمة:

إذا أردنا أن نجمل القول فيما سبق استعراضه من مشمولات المحاضرات الثلاث (التاريخ والتأويل، التأويل المضاعف للنصوص، بين المؤلّف والنص)، ذكّرنا بتساؤلين جوهريّين طرحهما إيكو فيها ثم سعى إلى تقديم إجابات مفصّلة ومعضودة بالشواهد عنهما، وهما بحسب ورودها في

الكتاب: ما هو المعيار الذي يمكن أن نستند إليه في القول بأنّ تأويلا نصيًّا ما، يشكّل حالة تأويل مضاعَف؟ كيف يمكن التعرّف على قصديّة النصّ؟

ولن نكرّر في هذه المحطّة الأخيرة من مقالنا ما بسطناه في صفحاته، وإنما نكتفي بحوصلة لأهم الأسس التي تندرج في الإجابة عن السؤال الثاني، لأنّه في نظرنا جوهر الفصول جميعها حيث لم يكن الأول والثاني إلا تمهيدا تاريخيّا ومنهجيًّا لمناقشته. لذا نقول (اعتمادا على إيكو بطبيعة الحال) أنّ التعرّف على قصديّة النصّ يتمّ بالاعتماد على ما اشتمل عليه من: تناظرات دلالية، تيمة الخطاب، الإستراتيجية السيميائية، الانسجام الداخلي، الإرث الاجتماعي والثقافي واللساني، القارئ النموذجي..

هذا، وقبل أن نرسم نقطة النهاية لمقالنا، نرغب في الإشارة إلى سمة في نصوص إيكو التي خصَصناها بمحاولة للقراءة الواصفة، وهي ذاتها في مجمل كتاباته العلمية والإبداعية على السواء، حيث يوضّحها سعيد بنكراد في نهاية مقدّمته على الانتخاب والترجمة من كتابيه (التأويل والتأويل المضاعف) و(حدود التأويل) بقوله: «إنّ الكثافة الفكرية للنصوص وسمكها تفرضان على القارئ العودة باستمرار إلى تصوّرات مختلفة لفهم مضمون المقالات واستيعاب أبعادها التحليلية والنظرية. فهي مليئة بالإحالات على مفاهيم وتصورات تحتاج إلى ضبط وتحديد لفهم السياق الخاص الذي توظّف ضمنه هذه المفاهيم.»[35]

وهذا ما سعينا إلى القيام به من خلال التنويع في مصادر البحث، والسير في المساحات التي تركها لنا إيكو ضمن الأقواس المفتوحة في نصوصه الموسوعيّة، من أجل تحقيق إحدى الغايات الكبرى لمقالنا هذا، والمتمثّلة في إضاءة مفهوم "قصديّة النصّ" من خلال مقاربة الإجابات المناسبة على التساؤلات المطروحة في عنصر المقدّمة.

7. قائمة المراجع:

- المؤلفات:

_ أمبرتو إيكو، التأويل والتأويل المفرط. ترجمة: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، سوريا، 2009.)

_ أمبرتو إيكو : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان، 2016.

_ أمبرطو إيكو: الأثر المفتوح. ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، اللاذقية، سوريا، 2001.

_ ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت (لبنان)، الدار البيضاء (المغرب)، 2002، صص196-201

_ Umberto Eco : De La Littérature, Edit Grasset et Fasquelle, 2003, p171

_ Jorge Luis Borges : Fictions, Ed Gallimard, Paris, 1983, pp51-52

- مواقع الانترنيت:

_ Lepeltier Thomas, « La Logique de la découverte scientifique, de Karl Popper », dans : Thomas Lepeltier éd., *Histoire et philosophie des*

sciences. Auxerre, Éditions Sciences Humaines, « Petite bibliothèque », 2013, p. 152-152. ww.cairn.info (*consulté le 13/avril/2022)*

_ *http://Babelio.com/liste/6018/Umberto-Eco (consulté le 12 avril 2022)*

_ *http://www.signosemio.com/rastier/analyse-semique.asp (consulté le 14 avril 2022)*

8. هوامش البحث

[1]- انظر: موقع http://Babelio.com/liste/6018/Umberto-Eco (consulté le 12 avril 2022) حيث تمّ إحصاء 49 كتابا، وإن كانت مؤلفات إيكو في الواقع تناهز الستين أو تفوقها في مجالات متنوّعة.
[2]- كما لا نجد أي إشارة للمسألة في الطبعتين الأولى (2000) والثانية (2004).
[3]- نقول هذا لأنّ هناك ترجمة أخرى لكتاب إيكو Interprétation et Surinterprétation. (انظر: أمبرتو إيكو، التأويل والتأويل المفرط. ترجمة: ناصر الحلواني، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، سوريا، 2009.)
[4]- يحتوي الكتاب على ثمانية نصوص موزّعة بالشكل التالي: النصّ الأول عبارة عن مدخل بقلم الناقد البريطاني ستيفان كولييني S.Collini 1947، وثلاث محاضرات لأمبرتو إيكو، وثلاث مقالات في الردّ على طروحاته فيها لمجموعة من التفكيكيين هم: الفيلسوف الأمريكي رتشارد وروتي R.Rorty 1931-2007، والمنظّر الأدبي الأمريكي جاناثان كلَر J.Culler 1944-، والناقدة والروائية البريطانية كريستين بروك-روز C.Brooke-Rose 1923-2012. وختاما مقال لإيكو في التعقيب على تلك الردود. (انظر: التأويل والتأويل المفرط، مرجع سابق.)
[5] - أمبرتو إيكو : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء – المغرب، بيروت – لبنان، 2016، ص13 وص14.
[6]- انظر: أمبرطو إيكو، الأثر المفتوح. ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، اللاذقية، سوريا، 2001، ص11.
[7]- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص17.
[8]- المرجع نفسه، ص19.
[9]- الغنوصيّة Gnosticism: مصطلح حديث الاستعمال يشير إلى تيار ديني فلسفي مسيحي ازدهر بداية في القرنين الثاني والثالث للميلاد، بتأثير من بعض المذاهب والمعتقدات الشرقية أبرزها الزّرادشتية، ثم امتزج بمؤثرات يونانية وغيرها. وتعدّ الغنوصية واحدة من الهرطقات أو الزندقات المسيحية. ولها مراحل ثلاث عرفت فيها أوجا وانتشارا في الدين والثقافة والفكر بأشكال مختلفة: نهاية القرن 18 وبدايات 19 مع الرومنطيقية، ثم في النصف الأول من القرن 20 في الفلسفة الوجودية، وأخيرا خلال النصف الثاني من القرن 20 في تيار مابعد الحداثي. (انظر في تفصيل هذا التعريف: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت – لبنان، الدار البيضاء – المغرب، 2002، من ص196 إلى ص201)
[10]- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص38 وص39.
[11]- يستعمل المترجم مصطلح "تناظر" لترجمة isotopie، وهناك من يفضل "تشاكل". العلامة تتجزّأ إلى: الدالّ، الجزء المرئيّ من العلامة نحو الأحرف: ق ا ر ب. والمدلول، الجزء المدرك منها، أي الجانب الدلالي الخاص بالدال، مثل: معنى كلمة "قارِب". الدالّ من جهته يتجزّأ إلى سِيما des Sèmes، فكلمة "قارب" تشتمل على سيما: الإبحار، التجسيد، وغيرها. أما التشكال (أو التناظر) فيتشكّل من: التكرار للسيما نفسها في نص ما. نحو: (كان قاربا كبيرا منحوتا في الذهب الخالص، الصواري كانت تلامس السماء اللّازوردية في بحار مجهولة) من قصيدة "القارب الذهبي" للشاعر الكندي إيميل نيليغان E.Nelligan. كلمات: قارب – الصواري – البحار، تحتوي على سيما "الإبحار". وتكوّن إذن تشاكل "الإبحار". (من مقال لـ فراتسوا راستييه F.Rastier

بعنوان: التحليل السيمي l’analyse sémique. من الموقع المتخصّص في السيميائيات: *http://www.signosemio.com/rastier/analyse-semique.asp (consulté le 14 avril 2022)*

[12]- التأويل بين السيميائيات والتفكيكة، من ص49 إلى ص51.

[13]- انظر: المرجع نفسه، ص53.

[14]- انظر: المرجع نفسه، ص55.

[15]- Lepeltier Thomas, « La Logique de la découverte scientifique, de Karl Popper », dans : Thomas Lepeltier éd., *Histoire et philosophie des sciences*. Auxerre, Éditions Sciences Humaines, « Petite bibliothèque », 2013, p. 152-152. DOI : 10.3917/sh.lepel.2013.01.0152. URL : https://www.cairn.info/--9782361060398-page-152.htm

[16]- يقصد إيكو بهذا التركيب: النصوصَ الدنيوية أي التي كتبها مبدعون كبار في ثقافة ما، ثم منحت لها عند تلقّيها "قداسة مجازية"، مثل: نصوص هوميروس وفيرجيل ورابليه (في فرنسا) وشكسبير وجويس... وإن كان المثال الذي يركّز عليه في هذا السياق هو: دانتي. (انظر: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، من ص59 إلى ص62.)

[17]- المرجع نفسه، من ص61 إلى ص68.

[18]- انظر: المرجع نفسه، ص72 وص73.

[19]- انظر: المرجع نفسه، ص73.

[20]- المرجع نفسه، ص74.

[21]- انظر: المرجع نفسه، ص75.

[22]- المرجع نفسه، ص76.

[23]- انظر: المرجع نفسه، ص76.

[24]- كتاب "محاكاة المسيح" l’Imitation de Jésus-Christ، وأصله باللاتينية De Imitatione Christi قد ظهر حوالي 1400م، وترجم للفرنسية في 1621، مجهول المؤلّف، وإن كان هناك من ينسبه لرجل دين كاثوليكي اسمه توماس آكامبيس Th. A kampis 1379-1471.

[25]- Umberto Eco : De La Littérature, Edit Grasset et Fasquelle, 2003, p171 (ولقراءة المقال الذي يتطرّق فيه لتأثير بورخيس في كتاباته السردية، انظر: المرجع نفسها، صص161-182 تحت عنوان: Borges et mon angoisse de l’influence. وهي في الأصل مداخلة تقدّم بها في مؤتمر Relaciones Literarias entre Jorge Luis Borges y Umberto Eco (العلاقات الأدبية بين بورخيس وإيكو) في ماي 1997.

[26]- Jorge Luis Borges : Fictions, Ed Gallimard, Paris, 1983, pp51-52

[27]- انظر: ibid, pp41-52

[28]- U.Eco : De la Littérature, p161

[29]- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص83 وص84.

[30]- انظر: المرجع نفسه، ص84 وص85.

[31]- انظر: المرجع نفسه، ص 85.

[32]- المرجع نفسه، ص86.

[33]- المرجع نفسه، ص99.

[34]- انظر: المرجع نفسه، من ص106 إلى ص111.

[35]- المرجع نفسه، ص14 (من مقدّمة المترجم)